ملامح من منهج التدليل والاستقراء في رسائل النور

الملخص

أ.د. عشراتي سليمان[1]

اهتم البحث بمنهج الرسائل، فكانت رسائل تدريب على حركية ذهنه ترتحل بالمتلقي إلى آفاق غير متوقعة، وهو جعل خطاب النورسي مميّزا بمستواه البرهاني، المجسّد لشخصية المقاوم، المستند إلى التدليل بالجنس الأدنى، وهو في الوقت نفسه عالم ايكولوجي متبتل، مفكّك، يستهويه الاستقراء، ويوثر التواصل مع البيئة ومن حوله، وهو في ذلك مستصحب للخطاب القرآني ، مستندا إليه في الردّ الفلاسفة العبثيين، مؤسسا استنبطانه على جامعية ألفاظ القرآن، ومع الرغبة الملحّة في بيان يتورّع عن ذكر الشبهة دفعا للخطاب العفيف، لأجل إيجاد فاعلية الاستنباط العقلي، فكانت رسائل النور تمرّسا منهجيا وتطبيقيا بالقراءة الجادة والحضور العقلي القلبي لتيسير تلق بالقرآن ومعانيه السامقة، وفي ذلك أقصر طرق اكتشاف قابلية اقتحام الإشكالات الشائكة.

الكلمات المفتاحية: المنهج، الاستقراء، التدليل، رسائل النور، النورسي.

* * *

Inference and Induction in the Risale-i Nur: The Main Features of Its Method

Abstract

Prof. Dr. Ashrati Sulaiman

This research study focuses on the methodology of evidence followed in the Risale-i Nur. The Risale-i Nur for its reader is practical passages that induce activation of one's mental abilities. the Risale takes its readers to new unexpected horizons. Nursi's argument in the Risale is distinctive in its level of evidence. It reflects the personality of its writer as a resistor who basis his

statements on giving proofs. At the same, the writings show Nursi's personality a believing ecologist who adores induction and prefers keeping a relationship with environment around him. Nursi, through the Qur'an and relying on its discourse, refutes allegations of chaotic philosophers in a way that induces intelligent argument, reasoning and derivation. Thus, the Risale-i Nur is a methodological and practical discourse that induces hearts and minds of its readers in order to openly understand the message of Qur'an and its devine meanings. This approach is a shortcut to detect the possibility of breaking into thorny problems, and challenges and resolve them.

Keywords: Methodology, Induction, Evidence, Risale-i Nur, Nursi.

* * *

منهج الرسائل

مما لاشك فيه أن النورسي الذي طالما أكد الصبغة الاستلهامية للرسائل وكَوْنُها ظاهرةً إبداعية تتم في أغلب الأحيان في صورة خطرات وانبثاقات وجدانية تخرج عن إرادته وتتمنع عن سيطرته، قد أكد لنا من صدد آخر المنحى التأملي الذي يميز هذه الرسائل، إذ هي تنشأ على هيئة أفكار غير محددة الملامح، ثم لا تلبث أن تتطرد في وجهة لا يلبث المتلقي أن يستبين فيها المرامي المتوخاة، والغاية المبتغاة.

"إن رسائل النور تخالف الكتب الأخرى، إذ تستهل البحث بشيء من الإبهام الذي قد يخفى على القارئ ويغمض عليه، إلا أنها تتوضح تدريجيا، وتكشف عن معانيها رويدا رويدا"...[2]

ويرسم النورسي المدْرَجَ الذي تسير عبره مصادراتُه العقلية للقضايا والأفكار، فيقرر أن الموقف النوري -بما هو موقف نجوى- إنما يسير إلى غايته من مَعْبَر المراجعة اللجوئية (الشكاة) ويسميها المحاكمة الشعورية، ثم إلى مقام المعاملة الإيمانية وعرض الحيرة والبوح بالغصة، ثم إلى المحاورة القلبية حيث ينتهي إلى اللحظة الشهية، فيظفر بلحظة سعيدة تَنَزُّل عليه فيها قطرات الشفاء...

ما أكثر ما تلاطمت الشجون والأحوال على صعيد المتن في رسائل النور، حيث دأب النورسي يقابل بين أعراض الابتئاس وسوانح الابتهاج، بحيث أضحت الرسالة جلسة أو برنامجا من جلسات التحليل النفسي التي تفتش البواطن، وتحل العقد، وتورث البرء.

لا تودي بالإنسان تأزماتُ الغريزة بل تأزمات الروح... والنورسي حلاَّل ماهر لعقدٍ لبثّتْ تنفثها الفلسفات المادية وتَحْرِفُ بها النفس عن الجادة، فبدل أن تتزكى، تتدنس.

لذا كله طفق الخطاب النوري ينضح بقطرات الشفاء يتعهد بها المرضى وفق منوالية حكيمة نفاذة تصيب هدفها...

إنه يتصدى للنفس، ويتحسس تشنجاتها، ويواجهها بمادة تنفذ إلى الخلايا، تُطَرِّي الروح، وتمنح الراحة، وتورث العافية، وتتحول بالنفس من حال إلى حال.

ولما كان النورسي يدرك ما للرسائل من فعل تغييري، راح يعير حجم الجرعات عنايته، فبقدر ما زاد من الجرعات، بقدر ما كان الأثر مفيدا.

إن استيفاء مساحة اللوحة التدَبُّرية يحقق للنفس فرصة التخفف من عنائها، فالنص يتحول إلى كائن موضوعي، إلى آخر، حي، نافذ، يخترق الحواجز ليصل إلى النفس المهزوزة، ويتلطف في مداواة الجروح.. الموقف النوري -هو كما القنوت- مجلس للترويح، للتسرية، للتخلص من الاحتقانات المعنوية بكامل الحكمة والتبصر والمشاركة...[3]

لم يتعاط النورسي فن التسرية من موقف الاقتناع بأن النفس المصابة تعدم كل منطق وتتهافت على كل ما يُلقَى إليها من قول أو نصح أو موعظة..

النورسي نفساني جبار، من أول نظرة يدرك العلة، وعلى الفور ينصرف ذهنه إلى وصف العلاج، هاديه في ذلك القرآن، وهو يتميز عن الحكماء التقليديين بكونه لا يكتفي قط بإحالة على مألوف المستحضرات الوعظية المتوارثة، ولكنه يُجهِّز لكل حالة مرهمها، ويستخلص لكل داء دواءه من صيدلية القرآن...

ولن تجد رؤيته تنحسر في تشخيص الأحوال الآحادية، فهو لا يُجَزِّئُ المسألة الوجودية مهما كانت خصوصيتها وتفردها، كلا، إنه يعاين العلل في إطارها الإنساني العام، فتراه يقتلع الأدواء النفسية والروحية من جذورها لأنه يستخدم الترياق الفعال الذي يستهدف مداواة أصول العلل، لا أعراضها.

أجل إن ديْدَنَ كثيرٍ من محترفي الوعظ هو استظهار القرآن في وجه كل نازلة وضيق، إنهم يفعلون ذلك بالاعتباط والارتجال الذي يُفقِدُ القداسةَ سرَّها، ويزيل عن الكلمة روحها... عكس النورسي الذي لا يعرض على الناس إلا ما ثبت لديه فعاليته بالتجريب... هناك نية انخراطٍ خالصة وانغمارٍ روحي حقيقي يجعلان النورسي يظهر في عصر الناس هذا قطبا صديقيا لا يبارى.

من هنا كان تَفَوُّقُهُ في مضمار علاج الروح، ومن هنا جاءت وصفاته صالحة لأن تؤخذ في كل بيئة.

لم يحجز الوازع الديني بينه وبين أتباع الديانات الأخرى أو المنتسبين إلى حضارات غير حضارته، ولم تقطعه أنواع النقار القائم بين الأمم عن التحاور معها، إذ طفق ينظر إلى الإنسان كأخ في الآدمية، بغض النظر عن نحلته وصبغته... ذلك لأن النورسي يجزم بأن الروحانية قاسمٌ إنسانيٌّ كينونيٌّ، وأن الإنسان مجهز بقابلية التدين فطرة، فهو على نحو ما متدين حتى وإن شذ عن الدين، إذ الاستعداد الجبلي الغيبي في الإنسان مكين، والإنسان لا ينفك عن التسبيح حتى وإن غفل العصاة عن تنشيط هذا النزوع فيهم، فلذلك راعت الوصفةُ النورية التركيز على البعد الروحي، وتعاطت العلاجات من هذا الاعتبار، فكان لها كل هذا النجاح.

حركية ذهنه ترتحل بالمتلقي إلى آفاق غير متوقعة

من خصائص حركة ذهنه أنه ينفذ بك إلى زاوية غير متوقعة، حتى حين ينفذ معك إلى محيط واقعة استعارية أليفة.

فهو حين يخبرك أنه راجع آية (حسبنا الله...)، وأنها أشارت إليه بأن يستدل على الطريق إلى معناها بالتساؤل عن كنه الجمع الذي يحيل عليه ضمير الجماعة (نا) في الفعل (حسبنا)... إن هذا البيان الذي ينطلق منه النورسي يجعل القارئ يتوقع بداهة أن يكون ضمير (نا) مُعَبِّراً عن جموع الأوابين من العباد المتوسلين إلى الله... لكن النورسي يخرج بك عن دائرة هذا التوقع، فيحيلك إلى جموع أخرى، من أجناس أخرى لا يلتفت إليها الذهن في هذا السياق التدليلي الملح الذي يفترض فيه أن يكون الشاهد قريبا من اليد، فبدل أن تسمع النورسي يبين لك أن المحتسبين هم الصالحون الأتقياء المؤمنون المستغفرون اللائذون بالله من العباد، تسمعه يقول لك: نعم هكذا أمرتني الآية، فنظرتُ.. فإذا بي أرى طيورا محلقة لا تحد، وطويرات صغيرة صغيرة جدا كالذباب لا تحصى (انظر إلى الجرأة الذوقية، وكيف ساغ له أن يقدم من الأجناس الذباب، وهو ما هو من حيث استقذار النفس له) وحيوانات وحوينات لا تعد، ونباتات لا تنتهي، وأشجارا وشجيرات لا آخر لها ولا نهاية...[4]

إن فطنة الإقناع هي التي جعلت النورسي يطرح أمامك هذا الشاهد الذي أبعدك عن أفق انتظارك، إنه بهذا الإبعاد ضَمِنَ على الأقل مكسبين بحجة واحدة، إذ جعلك توسع نظرتك فتتقبل أنواع العجماوات والجمادات ضمن دائرة الأمم المسبحة الحامدة الممجدة للرب... إنها حقيقة ماثلة أمامنا لكننا لغفلتنا نجهلها أو لا نتدبرها، وهو من جهة أخرى يجعلك تكتشف بنفسك حدود الواجب الذي أنت ملزم به حيال خالقك، إذ يجعلك تحس بالتقصير في علاقة الاحتساب مع الخالق، إذ تنتبه فجأة إلى

أن المخلوقات الأتفه والأقل اعتبارا في القيمة الحياتية قياسا بما للإنسان من منزلة، لا تكف عن الاحتساب، هي المسخرة، المحرومة من كثير مما يتمتع به الإنسان المكرم بنعمة العقل وبإمكانات الانجاز والابداع...

مزايا خطاب النورسي:

لعل أبرز ما يُمكِنُ الحُكْمُ به على مدونة النورسي، أنه عصرن الصورة التعبيرية، وارتحل بالخطاب الديني بعيدا نحو التحديث والموضوعية، وخصَّب أسلوب الوعظ وجعله يرقى إلى صعيد المقاربة العقلية والطرح العلمي.. لقد أدمج الخطاب الإسلامي في أرضية الواقع، وأوصله بثقافة المدنية الصناعية، وفتَّحه على المشاركة في حل الهموم الفكرية العالمية، وابتعد به عن نبرة الانغلاق والاستضعاف التي أوقعته فيها عهود الانحطاط والتقهقر الحضاريين...

المستوى البرهاني

يبني النورسي برهانه العقلي على مبدأ المقايسة، مقايسة الغائب على الشاهد... وهذه المقايسة تصح فيما يخص فرضيات النورسي لأنه يقايس كونا بكوْن مترابطين، يُعَدُّ أحدُهما امتداداً للآخر، وليس يقايس جزئية من نوع ما على جزئية من نوع مفارق، لأن النورسي يعتقد يقينا أن هذا الكون المشهود بحياته وآجاله المقيدة، يُكمِّله كونٌ عضوي، مغيَّب، له هو أيضا حياته وآجاله لكنها سرمدية (آجال الحياة مقيدة، وآجال الغيب مطلقة لأنها تتعلق بعالم الأرواح، فيما عالم المادة يتم استهلاكه وفناؤه في ردهات هذه الحياة الدنيا)، والنورسي يؤمن أن وراء هذا النظام الوجودي الدنيوي قوة مسيطرة تتصرف بمنتهى الدقة والكمال، لأن منطق الصدفة لا يصمد أمام بهارة هذا النظام الكوني، فالنورسي يقيم رؤيته الوجودية على أساس الإيمان، لأنه وجد -بالعقل- أن ما قرره القرآن من حقائق الغيب يتلاءم تمام الملاءمة مع ما يحدسه الحس السليم وراء معطيات هذا الوجود.

فما دام الكون يسير من غير ما عبثية تشوب انتظام كلياته وجزئياته، وما دامت السنن لا تتعطل ولا تخرج عنها أيةُ ظاهرة ما في أي عصر أو مصر، فذلك يعني أن وراء الشهود سنداً مهيمنا، جبارا، لا يمكن إلا أن يكون فردا في سلطانه، شموليا في إدارته، صارما في إرادته...

النورسي المقاوم

لا يفتأ النورسي يبيّن المسار الذي التزمه وهو يرمم جدار المعنويات في نفسه، وهكذا نتبين مداومته على العودة إلى الله واللجوء إلى العاصم القدسي، يلوذ به من كل ما يتهدد روحيته.

النورسي والصالحون عموما، يتّقون الضربات بسواعدهم لا لأجل حفظ الذات وصون النفس، ولكن دفاعا عن المبادئ التي يعتقدونها والشريعة التي يؤمنون بها، فهم لذلك يسترخصون النفس في سبيل العقيدة، وإرادة البقاء تقترن بإرادة الجهاد عن المبدإ، فحياتهم من ثمة حياة موصولة بالرسالة والهدف، ولذلك ترى النورسي مُخَيِّما أبدا أمام باب الحضرة، وتراه دائما على عنفوان وعزة، لأن الروح تستمد اعتدادها ومَنَعَتها من خالقها، فهي موقنة بأن من يجاور العزيز لا يلحقه ضيم ولا حيف...

من جهة أخرى نراه يعول على خطة التجييش الذاتي،[5] إذ فَطَرَتْه الحياةُ منذ الصبى على مبدأ الصمود، فلذلك شبَّ لا يعتمد على سند -إلا السند الروحي- ولا يعتد بعصبية إلا عصبية الذات وبسالتها في المقاومة ودحر العدوان... وإن من مظاهر المدافعة لديه استنفار القوة الروحية والزجُّ بها في المعركة وفق منهج حربي يقوم على تكتيك مطاولة الخصم، ودحره بما يُوَجِّه له من ضرباتٍ معنوية، وما يلحقه به من خسائر استراتيجية... جل المعارك الكبرى خاضها النورسي -شأن كافة الأخيار- وهو في المعتكف (جبهة القتال المتفجرة)، يدير المعركة ويحرك الفيالق ويدفع بالتعزيزات... القرآن قوته الصاعقة، والدعاء أحد أشرس ألويته، والابتهال مظلته الجوية التي تدك الخطوط، والتسليم والاحتمال احتياطه وقاعدته الخلفية...

ثم هو يبرع في عملية الانسحاب، ليس الانسحاب في حربية النورسي إلا مرحلة دقيقة تهيئ للانقضاض والوثوب من جديد، وحين تهدأ النار على الجبهة تشتعل في داخل النفس، فلذلك نرى النورسي يتفنن في إحكام الحوار مع نفسه... لا يعدد الخسائر، إنما يرفع تقارير الاحتساب للخالق، ليس طمعا في نيل نياشين الاعتراف، إنما أمَلا في تحصيل الرضى.

التدليل بالجنس الأدنى

لا يميز النورسي بعقله الإيماني بين الكائنات، فهو قد نظر إليها جميعا من منظور العبودية، عبوديتها للخالق، واعتبرها جميعا تؤدي وظيفة التسبيح، واعتبر الإنسان على قمة السُّلَّم بينها، لِما تهيأ له من ميزة العقل والإنسانية، فالإنسان متجانس مع المخلوقات الأخرى في الجانب المادي، متميز عنها في الجانب الروحي، وأن الجامع

بينهما هو خصوصية المعبودية والطاعة، لذا طفق النورسي لا يفارق في مقارباته بين الأجناس والأنواع، الإنسان والحيوان والنبات والجماد كلها كائنات مؤمنة، ولذا استمر النورسي في عقد المقابلة بين المخلوقات، مقوما مستوى خضوعية كل جنس، متوخيا لفْتَ النظر لحقيقة تغفل عنها الأنظار، وهي تسليم الكائنات -على نحو أو آخر- لرب الكون بالربوبية، وفي ذلك ترشيد يسعى النورسي من خلاله أن يلقن دروس الإيمان لمن لا إيمان له. فلذلك لَبِثَ يستدعي أنواع الكائنات لأجل الاحتجاج على ربوبية الخالق، موازنا بينها وبين الإنسان، من حيث الانقياد والخضوع الإيماني، إذ أن فنية التذكير، من خلال التسديد نحو الجنس الأدنى، تحسِّس الجنسَ الأعلى بالمسؤولية، وتدين تقصيره، وتهديه من ضلاله، وتنزل حيرته الوجودية...[6]

عالم ايكولوجي متبتل

النورسي عالم بيئة، وسيلته الملاحظة والاستقراء، واستخلاصاته المستقاة من الطبيعة والمشهد الايكولوجي تتحول دائما في فكره إلى مادة إثبات وأساس الاستدلال... فالنظر إلى الكائنات في فصائلها وتنوعاتها يجعله يدرك أنها جميعا من منشإ عضوي واحد، وأن البيوض المتشابهة والحبوب المتشاكلة هي حقل عجيب للاختلاف، إذ يتولد منها أنواع الأجناس والكائنات من طيور ونباتات وأشجار وجماد، وكل جنس يتفرع إلى مئات الآلاف من الألوان والأشكال... ولا يزال النورسي يلحظ كل ذلك ويسجله، وينتشي بتحصيله، ويكشف عنه بكامل الشموخ والحشمة.

التفكيك

هناك إجرائية تفكيك يجريها النورسي على صعيد البنية ويفاعل بها الخطاب القرآني.

فجملةُ ''حسبنا''[7] في قوله تعالى ''حسبنا الله ونعم الوكيل'' توضع على المشرحة، ويتركز العمل على جزئها المحوري (نا) ضمير الفاعل، فهذا الضمير في حس النورسي هو إحالة تستوعب جموع المخلوقات العجماء قبل أن تكون جموع الكائنات البشرية العاقلة... لماذا هذا الترجيح للأجناس الصماء على الناطقة أو بالأصح لِمَ يتم إدماج تلك الجموع العجماء وإشراكها في شأن تعبدي يتأدى بالعقل والقصدية الإرادية الواعية؟

والجواب ببساطة هو أن النورسي يستشعر وجود جملةَ المخلوقات من حوله، ويرى ماهية الربوبية تتحقق في كل عنصر ومَعْلَمٍ يمْثُل أمام ناظريه، وشارة الربوبية

مودعة في كل الكائنات الحية، فلا غرابة أن نرى النورسي يستخدم عبارة (ذوي الأرواح، ذوي الحياة) رفعا لشأن أجناس العجماوات وإقرارا للدور التعبدي الذي تجسده على ذلك النحو الصامت (لنتذكر سماعه تسبيح القطة على مخدته)... ولا غرابة أيضا أن يتصور لتلك الأجناس العجماء وظيفة تسبيحية على شاكلة وظيفة التكليف عند الإنسان...

ثم يمضي التفكيك فيستخرج النورسي (أنا) الفرد من (نا) الجماعة... ثم يتركز التحليل على (أنا)، فهناك عملية تجزيئ للمعطى الخطابي بنيةً ومعنىً تقتضيه خطة التحليل ليتم التوضيح ويتَأتَّى سحْبُ النتيجة وتعميمها على المقام... هذا التعميم هو الهدف الذي يتوخى بلوغه منهج الاستدلال لتغدو به الأحكام قوانين ومسلمات...

فالنورسي الذي صوَّب نحو عالم الأشياء (بذور وبيوض متشاكلة تُوَلِّدُ أجناسا لا متناهية التنوع والاختلاف)، يتحول بنظره إلى عالم العقلاء فيدرجهم في قانون الخلق والتكوين الإلهي، خلوصا إلى الإقرار بالربوبية، بالوحدانية...

هناك استقراء تصاعدي تنازلي، بدأ بجنس العجماوات، وانتهي بجنس النواطق، فظهر أن القانون الذي يسري عليهما واحد.

هناك زاوية خفية تظل دائما غائبة عن منطق وبداهة القارئ في ما يسوقه له النورسي من شواهد ومُوَضِّحات، هذه الزاوية -حين ينيرها النورسي- تجعل المُوَضِّحة تتحول فجأة من كونها شاهدا عاميا وعظيا، إلى عَيِّنة فكرية وإشكالية بالغة الدقة والإقحام... استمع إليه مثلا يتحدث عن نعمة الجوارح، إذ يقول ''شق سمعي وبصري، ووضَعَ دماغا في رأسي، وقلبا في صدري، ولسانا في فمي...''، إلى هنا يظل القول مسوقا على نحو بديهي لا ميزة له، بل نحس أن الأولى لو أن النورسي ساق آية﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ...﴾[البلد:٨-٩] فهي أعرب عن الخاطر، لكن النورسي يستمر في القول ''...خلق في ذلك الدماغ... مئات الموازين الدقيقة والمقاييس الرقيقة ''... وهنا يجد القارئ نفسه يتحول إلى أفق لافت، لأن الخطاب من خلال تصعيده الكشفي (موازين دقيقة ومقاييس رقيقة)، يشدنا حتما إلى منطقة الظل في ما نحمله من تصورات عن الأشياء والظواهر فينا ومن حولنا، إذ نظرتنا الإدراكية الاعتيادية غالبا لا تتعدى مستوى السطح والأوَّلية، فيما النفاذ إلى الحقيقة يستوجب أن يتعدى النظر السطح إلى الغور، وذاك هو بالضبط ما يتحقق للنورسي، إذ طفق في ما يكتب ويحلل، يسلط الضوء على الكوى الخفية في الأشياء المعتادة لدى الناس، فلبث يقدم لهم على ذلك النحو الجانب الجوهري الغائب عن تصوراتهم في كثير مما

يعيشون ويلابسون، الأمر الذي دأب يطبع أفكاره بالجدة والجدية والغنى والنفاسة والمردودية...

لا يخرج قارئه خائبا مِن حيثما فاعله، فأنت تتلقى خطابا عامرا بالفائدة، كاشفا عن جهد مثمر لبث النورسي يتجشمه في غوصاته واستجلاءاته التأملية، وفي روحاته وغدواته الملكوتية.

في المثال السابق لم يكتف النورسي بالإعراب عما لتلك الفعاليات والحواس من دقة سماها الموازين والمقاييس، بل مضى في تشخيص كُنْهِ تلك (الجوارح)، فعرَّف وظيفتها، إذ أنها ''تتمكن من أن تزن وتتعرف على جميع هدايا الرحمة...'' وواضح أن تعبير (هدايا الرحمة) هنا تعبير يرشح بالإيمان، فهو يجري على لسان النورسي في موقف امتناني سافر، لأن النورسي قد أدرك في تلك الأجهزة الربانية اللطيفة ما قد لا يدرك غيره، فهو إذن تعبير نابع من مشاعر حالية ومقامية. وهو من جهة أخرى تعبير يعرب عن علاقة التراحم التي تربط النورسي بعباد الله ومخلوقاته، فلذا نظر إلى ما يمنحه الله لهم من أفضال على أنه هدايا، وفي اختيار لفظ الهدايا للتعبير إقرار بالابتهاج على تكريمية الخالق لجنس الآدميين وإعلاء منزلتهم، ولفظ الهدايا من جهة أخرى يترشح حمدا وشكرا واعترافا بالأفضال التي مَنَّ الخالقُ بها على العباد... وهو لفظ - في المحصلة النهائية- يوعز بحس المسؤولية، مسؤولية تذكير الناس، لأن النورسي ظل في ما يقول ويكتب يعرب عن واجب الحمد والشكر لله، وإلى ذلك كله فإنه كان يدلي بشهادة ترى أن هناك لطفا إلهيا يتجسد في المكرومية التي شمل بها الخلق...

إن هذا التمادي في التعريف بالشيء هو الجانب الإقناعي المؤثر في المقال الترشيدي النوري، لأن النورسي يرتحل بالحواس والمدارك إلى منطقة الظل، فيجلي ما في الأشياء والموجودات من معان معبرة، ويبرز ما لها من مقومات غير مدركة، ومدى فاعليتها، فهو إذا ما حدثك عن الشجرة فإن تسديده -قبل أن يكلمك عن الثمرة- يتوجه نحو الأصول والجذور وعن الثرى وما تحت الثرى قبل أن يشمل كلامه الفروع والجذع والغطاء الورقي... ثم إن حديثه عن الجذور لا يكون ذا جدوى ما لم يربط بين التربة (الطين) الذي حوى البذرة أول أمر، والحمإ الذي تخمرت فيه وهي تنفلق وتنشق عن عرق يكون بمثابة حبل صرة لها تتغذى به البنية، وعرق آخر يعلو فيغدو ساقا فجدعا وفروعا وطلعا نضيدا... بل إن ضربة الحسم في خطة العرض عند النورسي تتوخى بلوغ ذروة لا تكون في الأغلب إلا مشخصة لنوع من المفارقة تنبني عليها قاعدة الاحتجاج والبرهان والإقحام، فالحديث عن الشجرة لا يستكمل غايته إلا

إذا انتهى مساق الكلام إلى الثمرة، وإلى الربط بين لذاذة طعمها وزكاوة شمها وعذوبة لونها، وبين طبيعة منبتها المفارقة لكل ذلك (بذرة متفسخة في قاع من الحمإ المسنون)...

هكذا يبني النورسي أفكاره الإثباتية، يغوص إليها، ويمفصل التفرعات والجزئيات، ثم يعقلن مواطن التنافر الظاهر والنشاز الحسي الماثل بين النتيجة والمقدمات، ملامسا البعد الغيبي الذي تنبني عليه الأشياء، متجاوزا سُلَّمِية الاستكشاف التي ينتهي عندها الوضعانيون، حين ينتهون بأفكارهم إلى الحد الذي تنتهي عنده حواسهم، فهم لذلك يؤلِّهون الأسباب، فيما النورسي يجعل من سقفية الأسباب مجرد محطة تنتهي عندها البصيرة الحسية البشرية، وتبدأ بعدها بصيرتهم الروحية، فيرون بالروح علة أمَاً، هي القوة المهيمنة على كل فاعلية سببية في هذ الوجود... من الطين والحمإ تنتج أزكى الروائح... ومن البقعة الواحدة تنبت آلاف الأنواع، بالمزن الواحد تتخرج كافة الأزياء النباتية والأجناس المتساكنة في صعيد واحد، فالخالق واحد والمصنع واحد وماركته المسجلة واحدة هي كـ.ن. (كن فيكون).[8]

النورسي والتواصل مع البيئة من حوله

يكاد الدارس المتعجل أن يربط -ووفق نظرية الانعكاس- ظاهر نصوص النورسي مع بيئة إنتاج هذه النصوص... بين البيئة الطبيعية الجميلة بل الساحرة التي تقلَّبَ فيها النورسي أثناء عقود من جهاده ونفيه، وبين الخلابة التي تميزت بها شعريته وتأصلت لخطابه...

حقا لقد شاع بيننا القول القائل (الفن ابن بيئته) وسار مسار المسلَّمة، غير أن التأمل الجاد في العلاقة الخفية القائمة بين نصوص الرسائل ومناخ بيئتها حيث تولدت، يبين أن البيئة الطبيعية لم تكن دائما الشرط المنعكس الجمالي والاعتباري لمادة الرسائل، وإنما الذي ينعكس هو ما ورائية تلك الطبيعة وموعزاتُها وتوهجاتُها الروحية، بدليل وجود هذا اللفْحِ القوي الذي يسري إلى القارئ من ثنايا السطور، لَفْحٌ يُنسيه ما يجد من نعومة المناظر الطبيعية والمرئيات الفيزيكية التي يستدعيها النورسي ويصنع منها نصوصه وينسج عليها أفكاره...

الطبيعة حاضرة بقوة في الرسائل، والعاطفة التي يسبغها النورسي على الأشياء والألحان النابعة من تلك الطبيعة لا تقف عند حدِّ التغزل بالجمال الحسي كما هو شأن الحسِّيِّين عادة، بل إن العاطفة ترحل بالضمير إلى ما هو أعمق وأبعد من الديكور، إلى الروح الكلية التي تفيض على الكون وعلى ما يعمره من موجودات حسية ومعنوية

وتعطيها ماهيتها الإيمانية الملموسة.. هناك روحانية في الرسائل تظهر بالقوة حينا، وبالفعل أحايين، هي التي تعقد الصلة بين القارئ وبين الرسائل، وتجعله يستكشف على الدوام فيها الجديد، والمقنع، والمعبر.

الخطاب القرآني

''..الخطاب القرآني هو من الجمالية الرفيعة بحيث يكون غذاء وقوتا في ذات الوقت''.[9]

لابد أن يُبْصر القارئ الأريب في كثير مما طفق النورسي ينعت به البيان القرآني من خصائص ويستشفف فيه من مزايا ونبوغ، نعوتا وخصائص تنطبق بنحو أو آخر على أسلوب الرسائل النورية ذاتها.

فحين يؤكد النورسي ''أن البيانات القرآنية مؤثرة ورقيقة ومؤنسة ورفيعة حتى إنها تملأ الروح شوقا والعقل لهفة والعين دمعا''[10] فإنما يعبر -بنحو ما- عن خصائص أسلوبه هو، إذ أن الرسائل لم تتأثر بالقرآن قلبا فحسب، بل لقد تأثرت به قالبا أيضا، إذ انْشَدَّتْ إليه بعد أن سحرها، واتبعت نهجه المتفوق بعد أن بهرها، فورثت عنه شيئا من صفاته.

إن القارئ الخبير يتبين بسهولة تبطين القرآن للرسائل، إذ فوق كل سياق نوري تزدهر حقيقة قرآنية وتتجسد لمحة فرقانية.. والذي لا ريب فيه أن مواطن عدة من النصوص النورية تتشح بهذه الخاصية القرآنية الاستلائية، فهي على الدوام نصوص تصعد من تحسيساتها الفكرية والقلبية بحيث تَأَتَّى لها أن تواجه القارئ بعطاياها الغزيرة وبكل ما يملأ ''الروح شوقا والعقل لهفة والعين دمعا''، ولا إخال أن هناك قارئا لم ترتعش نبرتُهُ تأثرا بمعاني الرسائل المستلهمة من معين القرآن، ولم تتنَدَّ عيناه تجاوبا مع ما ينفلت أحيانا من مشاعر تحرِّكُ في النفس مكامن الشفقة والرحمة والتعاطف والتضامن مع مؤلفها رحمه الله.

القرآن والفلاسفة العبثيون

يعترف النورسي أن ''القرآن الكريم مثلما أجرى من بحر علومه؛ علومَ الشريعة المتعددة الوفيرة، وعلومَ الحقيقة المتنوعة الغزيرة، وعلومَ الطريقةِ المختلفة غير المحدودة، فانه أجرى كذلك من ذلك البحر بسخاء وانتظام؛ الحكمة الحقيقية لدائرة الممكنات، والعلومَ الحقيقية لدائرة الوجوب والمعارف الغامضة لدائرة الآخرة''.[11] وضمن نطاق هذه الدوائر دأب النورسي على الحركة وتفعيل العقل، واستجلاء مكامن

العبرة والنور في القرآن، ليشيد صرح رسائله، معتبرا عمله ذلك تفسيرا للقرآن واستمدادا لأسراره.

جامعية ألفاظ القرآن...

يقرأ آية من لفظين () بأكثر من عين وأكثر من عقل، إذ يرى أن الخطاب القرآني هو حمولة من الفوائد، وكل فرد ينال حصة على قدر ملكاته واستعداداته... وهذا قانون تثبته نظرية التواصل. إنما الطريف اللافت عند النورسي هو هذا التعدد في المستويات الذي استطاعت ذهنيته أن تستشفه في الآية القرآنية وتقرأه بها... حتى ليمكننا القول إن للنورسي ذهنية سبرية، متعددة المرايا (Polyvisuelle)، تستوعب طبقات من المعاني في الأرضية الواحدة، وأن عينَهُ تنفذ إلى أركيولوجية الدلالة وتخترق طبقاتها... بل إن النورسي بهذا النفاذ الإدراكي يكشف عن عقلية عارفة بفوارق نفسية الآخرين، وأن هذه المعرفة هي ما أهّله لبلوغ هذا التفوق والتوفيق ليس فقط في فهم الروح الإنسانية، ولكن في تجهيز خطابه بمقومات توصيلية تيسر من عملية تداول أفكاره بين الناس، وتقوي من فرص رواجها بين الأوساط المختلفة...

طالما أكد النورسي على تعدد أصوات الخطاب القرآني، إذ طفق يلمس في الآية الواحدة تعدد مستويات معناها ليس لأن اللفظ القرآني له قابلية حمل المعنى وضده، ولكن لأن "القرآن جاء مُكَلِّماً، متوجها إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين... بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة"،[12] لقد وعي النورسي أنه "ما دام الخطاب القرآني الكريم خطابا أزليا يخاطب به الله سبحانه وتعالى مختلف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور، ويرشدهم جميعا، فلابد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الأفهام، ويضع أمارات على إراداته هذه".[13]

يقرأ النورسي مثلا آية ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾[يس:٣٨] فيرى أن (لام الجر) فيها يتضمن معناه الغائي ويتضمن أيضا معنى رديفا هو (في) (=في مستقر لها...)،[14] ليس هذا وحسب، بل نراه يقرؤها على أوجه أخرى منها أن حرف الجر (ل) هو رديف للعلة، أي أن الشمس تجري بعلة الاستقرار.

كما نراه يرى أن الآية تبطن معنى رمزيا يجعل من الشمس شجرةً ثمارُها المجرات ومجاميع السيارات من حولها... أو أن الشمس سيدٌ في حلقة ذكر يدير مجلس وجْدٍ، فمتى صمتَ بردت الجلسةُ، وتعطل تيار الانجذاب...

هكذا يُخرِّج النورسي الآية من خلال إدراك إحاطي، فيجد عقل القارئ فيها ليس معنى واحدا -ملقى على الطريق، يقع عليه نظر العجمي والعربي- ولكن معاني جميلة، تستشف من زواياها المختلفة، تتساوق كلها مع المنطق العقلي، وتعزز من رجاحة الإقناع والاعتبار التي توخى القرآن ترسيخهما من وراء منهج التدليل الحسي الذي اتبعه في طائفة كبرى من حججه.

نرى النورسي يتناول آية ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة:٥ فيراها تختزل الكلام وتختصره لأجل أن يتسع معناها ويستوعب مساحة من أصناف الفاعلين،[15] حيث إن لفظ ﴿المفلحون﴾ يستجمع أطيافا من المرشحين لنيل الفلاح الأخروي... لذا جاء اللفظ مطلقا من غير تحديد شرطية الفلاح... فلم يحدد الكيفية ولا الوسيلة ولا السببية التي ينال بها الناس مقام الفَلاحية..إذ هو مقام يَحصل عليه الإنسان بكيفيات وعطاءات شتى... فالآية سكتت عن الحصر، لتوسع من أفق الخدمة وتنوع من إمكانات التوسل والعبادة أمام المؤمنين... هكذا يأتي الاجتهاد النوري سمحا، فاسحا المجال في وجه التوبة والسعي والتوسل وعدم الوقوع في مغبة القنوط ومزلق الإحباط.

الخطاب العفيف

لتأكيد طبع العفة في أخلاقياته، نراه يقرر أنه يتورع عن ذكر الشبهة، ويجسد ذلك فعلا في المواطن كلها، مبررا ذلك التجنب لذكر الشبهات بالحرص على ألا تلحق ذهن المتلقي المسلم شائبة الفسوق والعصيان، فهو يسوق للمتلقي ما يحفظ فيه البكارة الشعورية الطاهرة "أما الشبهات فقد أجيبت عنها أجوبة قاطعة من دون ذكر الشبهة نفسها وذلك لئلا تتكدر الأذهان".[16]

وإذا كنا قد وقفنا من قبل عند سمة الاستحياء التي تطبع خطاب النورسي في مواطن الإعراب الامتناني ومواقف الإفصاح الحميمي، فلا بد من تسجيل صفة أخرى تتجانس مع الأولى من حيث النبل امتاز بها النورسي، نقصد بها عفة الخطاب... فصون الوجه وصون اللسان من أمارات الرهافة الإيمانية التي تبلغها الروح حين تسير على طريق الحق وتنشد درجات الصديقية.. ليس طهر الجسد وحده مطلوبا بالنسبة للمتقين، إنما طهر اللسان والجنان كذلك... والكتابة -مثل مجالس الأنس والترفيه تماما- كثيرا ما تجتذب أصحابَها نحو التجوزاتِ، فتستميلهم إلى اللغو واللهو، بل وإلى التفحش، ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ... إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الشعراء:٢٢٤، ٢٢٧.

الإنسان يماثل الشجرة

- حياة الشجرة لها تاريخ[17] هو هذه الأطوار والتحولات والإثمارات والاحتباسات التي تمر بها... فهي لا إرادة حرة لها، مع كونها حية ومتطورة وذات شخصية مستقلة عن إرادتنا نحن البشر، ووجه التشابه بين الشجرة والإنسان أن للإنسان مثلها حافظةً سُطِّر عليها بقلم القدر تاريخُ حياته، وكذا الشجرة تحمل في نواتها فهيرس تاريخها وحياتها.

والإنسان هو ثمرة شجرة الخلقة، فهو ترقٍّ نهائي تهيأ ليجسد أثمن القيم وليؤدي أسمى الوظائف: العبودية لله.

وإن جِهةَ التشابهِ بين الإنسان والثمرة، أن كليهما هو نتاج مخاضٍ نوعيّ مفارقٍ لأصله ومصدر تَخَلُّقِه، فالثمرة لا تشبه في شكلها ولا في مذاقها شكلَ ومذاق شجرتها، وكذا الإنسان، لا يتصف بمادة تخلقه الأصلية: الطين.

وجهة التفاوت بين الإنسان والحيوان، أن الحيوان يأتي إلى الدنيا وكأنه قد اكتمل في عالم آخر. فيرسل إليها متكاملا حسب استعداده، فيتعلم في ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته وعلاقاته بالكائنات الاخرى وقوانين حياته... أما الإنسان يقدِم إلى الدنيا وهو محتاج إلى تعلم كل شيء وإدراكه..فوظيفة الإنسان الفطرية هي التكمل "بالتعلم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة والعبودية بالدعاء... وأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو معرفة الله تعالى، كما أن أسَّ هذا الأساس هو الإيمان بالله جل وعلا".[18]

أهل الحقيقة طبقات ثلاث والنورسي أحد هذه الطبقات

-يعدد طبقات أهل الحقيقة، ويُبيِّن السبل التي يسلكونها لنيل الحقيقة، إذ هم ثلاث طبقات ونحدس- دون تردد أن النورسي يوجد ضمن إحدى تلك الطبقات، أي "الذين يصلون إلى الحقيقة سريعا بالإيمان والقرآن والفقر والعبودية".[19] فمنهجه الروحي وفلسفته الإيمانية منصوص عليهما في الرسائل، ولا يمكن للقارئ أن يخطئ في تحديد ملامحهما ومرتكزاتهما... علما بأن النورسي يشارك الأصناف الأخرى في ما أخذوا به من سبل ووسائل لبلوغ الحقيقة... فهو ينتمي من بعض الوجوه إلى أهل الحقيقة الماضين إليها بالمجاهدة بتزكية النفس وإعمال العقل... وهو أيضا ينتمي إلى أولئك السائرين إلى الحقيقة بتصفية القلب والإيمان والتسليم، وهو أيضا من "الذين يتحرون الحقيقة بالعلم والحكمة والمعرفة..."[20]

على أنه قطعا ليس من الذين حصروا السلوك إلى الحقيقة في استدلالهم، ولم يدَعوا الأنانية والغرور... بل إنه يحذر أن يقع المرء في ما وقع فيه هذا الصنف الذي اعتدَّ بعقله ولم ينوِّرْ مداركه بروح الشريعة.

فاعلية الاستنباط العقلي

- يتناهى خطابه في تثمير فاعلية الاستنباط العقلي، فهو -مثلا- بدل أن يقول: التفكير عبادة، نراه يدرج مسعى العبادة ضمن منظور (الأجْرية الفطرية) الذي أصَّلَهُ للخدمة، إذ يجعلنا ندرك أن اللذة المتحققة من أداء الفعل الفطري هي جزاؤه العيني الحاضر، إذ كل فعل يقوم به الإنسان وفق ضوابط الشريعة -حتى الشهوة الحلال- إنما يؤجر عليها،[21] فالإنسان ينقاد لكثير من الواجبات بالباعث الفطري، ذلك لأن النزعة الآدمية قد ركب الخالق فيها قابلية السعي، وشَرَطَهُ بالباعث الغريزي وزرع حافز اللذة في النفس الإنسانية بل وفي روح كل حي، بما في ذلك الحيوان والنبات، إذ لا تتفتح الزهرة إلا لتعرب عن ضرب من الالتذاذ.. إن فعل تكاثر الأجناس مثلا-بما في ذلك جنس الإنسان- إنما يتم من خلال آلية طلب اللذة وبحافزية الباعث الذي يحمل كل كائن حي على إشباع الباعث الفطري، وبذلك تستمر الحياة وتتوسع.

فاللذة بحسب النورسي هي الجزاء العاجل الذي يتلقاه الفاعل الحي وهو ينهض بالفعل، زيادة عما رصد الخالق له -لقاء ذلك- من جزاء آجل هو الثواب الأخروي.[22]

من هذا المنطلق يغدو العقل نفسه حاسة أو جهازا ينتصب على صعيد واحد مع الحواس الأخرى: العين والأذن والفم والأنف، ويتهيأ مثلها للمأجورية العاجلة، إذ أن تَلَذُّذَ هذه القدرات بما تصيب من طيب أو متعة أو هارمونيك أو جمال أو يقين إنما يُعَدُّ أجرة فورية تهيأت لها عن طريق الجِبِلَّة وفق اقتضاء إلهي عادل.. وفي هذا السياق يرى النورسي أن العبادة هي حق يقتضيه الخالق من عباده جزاء ما تكرم به عليهم من نعم "يا نفس إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة"...[23]

بل إننا نرى النورسي يذهب بهذه الرؤية المنطقية في اتجاه ميتافيزيقي إعلائي تتقلص به المسافة بين الحياة الدنيوية والأخروية، وتغدو حوادث الأولى امتدادا للآخرة مع فارق النوعية طبعا: الفاكهة التي تأكلها في الدنيا وتذكر عليها الحمد لله، تتجسم في الجنة فاكهة فردوسية وتقدم لك لذة طيبة.[24]

فقه الحروف يفيد في بناء مواقف الاعتدال

ينسحب التحسس العقلي عند النورسي على المجال اللغوي أيضا، حيث نراه يظهر اقتدارا جليا في فقه قيم الحروف والمحددات اللغوية البسيطة، فتمرسه بمعاني الحروف -مثلا- يجعله يفترض للحروف دلالات تضمينية وقيما استعاضية تتراوحها حسب السياق أو التخريج العقلي، وإلى ذلك نراه يؤكد لنا أن الوعي بالدلالة الحرفية أمر بلاغي، تواصلي، وعلى أهمية كبرى في حياة الناس، فبقدر مهارتنا في توظيف الحروف وتوجيهها وجهة سديدة يمكننا أن نجد الصيغة الأنسب التي يتحدد بها خطاب التسامح والديمقراطية، نرى ذلك مثلا في معالجته لدال (الحق)، فالاختلاف في قولنا (هذا الحق)، و(هذا حق) ليس في حرف التعريف فقط، وإنما في الجوهر أيضا، إذ معنى الحقية في العبارتين متفاوت، فهو مع إضافة حرف التعريف حصري، ومع إزالته إطلاقي، لأن قولك (هذا الحق)، يحمل روحَ دَفْعِ الآخر وعدم الاعتراف له بالموقع، فيما قولك (هذا حق) يتضمن الاعتراف بالآخر، وبأن الحق متعدد الوجود، وأن الموقع يستوعب الرأي والرأي الآخر...

لقد رأى النورسي أن تجريد لفظ الحق من (ال) التعريفية يترك باب التفاهم مفتوحا، ويسد كل احتمال للتعارض السلبي والتنافي الإقصائي، فقولك لخصمك هذا الذي أرى هو حق، أدعى إلى التفاهم من قولك له هذا الذي أراه هو الحق... إذ (ال) هنا استحواذية، تلغي رأي الآخر، فهي أبعث على الصدام والخلاف...

هكذا وبفضل هذا التخريج الذي نستلهمه من نظرة النورسي التسامحية التي عبر عنها من خلال حسن تقديره لقيمة الحرف ومنزلته الوظيفية في البنية اللفظية، نتعلم كيف نكيِّف علاقتنا بالآخر من خلال تحوير جزئي في الخطاب (بتنازل جزئي على مستوى بنية اللفظ، يعكسه تنازل جزئي على مستوى الموقف) وكيف نلطِّف موقفنا من الحدة والحدية، وكيف نوسع من مساحة التفاعل الايجابي مع الآخرين.

لا ريب أن هذه الدراية بمنطق الحروف وبفحوى الخطاب إنما تهيَّأتْ للنورسي جراء تمرسه بالمراس العقلي، فاشتغاله الدائم بالتفكير وتفكيك الظواهر، ومنها التدبر في معاني الآيات وتفسيرها، قد عزز لديه هذه القابلية الإدراكية على صعيد اللغة وموادها البنائية.

الحقل الإحالي التمثيلي

مادة الإحالة التمثيلية لا تنحصر عنده في حقل بعينه من المشخصات والشواهد، بل إنها مادة إحالية عريضة، إلا أن المتواتر منها في ثنايا الرسائل بصورة محسوسة هو

(النواة، الشجرة، الثمرة)، إذ الحدث الإنباتي، باعتباره التجسيم الحي والأمثل للفعل الخلقي الإلهي ولقدرته الإيجادية، طفق يتكرر متخذا من معاني الغراسة والتلقيح والتجرثم وما في معناها مجالا تصويريا وتوضيحيا لمظاهر الإيجاد الإلهية وللقدرة الباري في الإنشاء والتكوين والحشر...

وطبيعي أن تتداعى إلى هذا الحقل الإحالي ألفاظ الماء، القطرة، النطفة إلخ.. إذ المجال المعنوي واحد والتشابه بين الوقائع النمائية لشتى الأجناس قائم، فماهية التخليق تتم -حسيا- بالنواة وبالنطفة وبالقطرة... ولذا رأينا النورسي لا يَنِي يُقرِنُ بين الإنسان والشجرة، بين الإيمان والثمرة، بين الحياة والآخرة... لأنه يرى أن الدنيا شجرة، ثمرتها الآخرة.

هناك مجال إحالي آخر تستدعيه مواقف التمثيل والإيضاح هو المجال الإنساني، قوامه فواعل اجتماعية وعلائق تعاملية، ومحور الصلات والتواصلات فيه هو صراع الخير مع الشر، ولعل من أهم عناصر التشخيص والأداء التي يوظفها النورسي: السلطان والقصر، السيد والعبد، القائد والجند... التاجر والبضاعة، السفر والسياحة... كما أن مسرح هذه الأحداث التمثيلية إنما يكون الواقع والخيال، الحلم واليقظة، البحر واليابسة، الليل والنهار... والصورة التقابلية التي يتمحور حولها التمثيل ليست مجانية، إنما توعز بحقيقة التقابل بين العوالم والبُنى التي انطبع عليها ذهن الإنسان وتهيأ لها حسُّه الجبلي، إذ هناك ثنائية مفاهيمية تؤطر فكر الإنسان وتحدد ماهية معارفه ومداركه... فالإنسان قيمة شعورية تتحدد معالمها من خلال إحداثيتي العدم والوجود، الحضور والغياب، الحياة والموت، السعادة والشقاء، الزمان والمكان، الكفر والإيمان...

لا شك أن مادة الاستلهام في ما تداوله النورسي من شواهد وتمثيلات كان أساسها التجربة والحياة، وكذلك المقروءات والأخبار التي اختزنها النورسي في ذهنه زادا للعبرة والموعظة، وهي أيضا تركيبات ذهنية توَلِّدها المخيلةُ التي تَرَيَّضتْ طويلا على اصطناع المشاهد البديلة عن الواقع المكفهر، وعلى تجديد العوالم النفسية والروحية تعويضا عن كآبة الأحوال الكابسة...

هناك مساحة ثالثة من وسائط التمثيل والتوضيح هي عالم الجمادات والعجماوات أو عالم غير العاقلين.

لَطالما حاورت مخيلةُ النورسي الجبال والبحار والنجوم والقفار، وطالما استنطقت عناصر الكون الصماء وشخصتها في سياقات حية، معبرة عن المشيئة الإلهية التي

أوجدتها وأدمجتها في نظام شمولي تؤدي فيه وظيفتها بحكمة التسخير وبفطرة التسبيح التي جبلت عليها الأشياء والموجودات.

هناك حنكة فنية لديه وقدرة عقلية -ظلت محل اعترافه هو- لبث يستثمرها في مَسْرَحَة أفكاره وتجسيد معانيه في صور شاخصة من خلال سوْقِ الأمثلة القصصية واستعراض المواقف السردية التي كان النورسي يدرجها في رسائله كبطاقات بريدية تذكارية يرسلها إلى القارئ من مواطن ساقه إليها ارتحاله الروحي، وانتهت إليها سياحاته القلبية وسرحاته الروحية وجولاته العقلية.

-الاقتدار على الاستقراء نلمسه في هذا التمرس الذهني الذي يجعل النورسي يجتاز باستمرار إلى ما وراء منطقة الشهود، إلى تخوم قصية من مدارات الغيب واللاشهود، فلكأن مخيلته منظار مسلح بألوان ما فوق البنفسجي، تخترق الكثافة وتشخص عوالمها المحجوبة، وتحصيها، وتترصد حياة من يعمرونها وتحركاتهم تماما كما يُجري دارسٌ منقِّبٌ تحقيقاته تحت الماء في أعماق المحيط...

إن النورسي الذي ظل يعتبر المخلوق الإنساني قلب الكائنات وواسطة المخلوقات (ذوات الأرواح) ظل ينظر إلى المحيط الكوني وما يملؤه من أجناس وموجودات ومرافق على أنها عوالم تعمر الفضاء السفلي من حول الإنسان، تماما كما أن هنالك مرافق وأجناس وعوالم تملأ الفضاء العلوي من حوله.. وظل من جهة ثانية يقابل بين عناصر هذا الواقع المركب الذي يحيط بالإنسان ويقرأ من خلاله الواقع اللامرئي من حياتنا وعوالمنا، فكما أن الشجرة -وهي من مكونات العالم السفلي- كائن مسبح مسخر يؤدي وظيفة حيوية في هذا الكون على أكمل الوجوه وأدقها، فكذلك هناك فصائل الروحانيات اللامرئية في العالم العلوي من ملائكة وأجناس أخرى مسخرة مسبحة، تؤدي دورها الكوني من حول العرش، وتعمر الملكوت، وتدأب على تأدية ما أسند إليها من مهام بشكل دقيق وحي ومستمر...

والنورسي وهو يوجه الكاميرا نحو هذه العوالم اللامرئية يدهشنا -فعلا- لأنه لا يباشرها في ضوء ما تواتر عنها في التراث والمدونات القدسية فحسب، بل إن النورسي ليتعمق حقيقة هذه العوالم ويشخصنها ويواصف منظوماتها وبُنى اجتماعها وعلائقها وأجواء روحانياتها، وهو في كل ذلك لا يتجرأ على الغيب ولكن يستثمر جُمام مشاعر وتصورات استهدى إليها بتنقيب عقلي واستخطار روحي، مسنود بتعاليم الكتاب والسنة، (تذكروا توصيف القرآن لمجتمع الجن في سورة الجن مثلا)... من

هنا يسعنا القول إن النورسي يُسَخِّر فائض قدرته العقلية في استكشاف وتوسيع حدود الروية الغيبية، من موقع ايماني، تنويري.

فكما تعود النورسي أن ينقِّب في كنه الذرة والرشحة وفي صلب الجزيئات العضوية، ويبين فطرتها وسلوكها وروحيتها، يفعل ذلك كذلك مع عالم الملائكة والروحانيات، إذ يتصور أحوالها واستجاباتها وصلاتها بوظائفها، ويتحسس وازع التسبيح الذي جبلت عليه... كل ذلك يفعله النورسي دون أن يجد القارئ في هذا التفعيل المباشر والتوصيف الحي لعوالم الماوراء إلا مزيدا من الاستطراف والتذوق والمشاركة والتأمين...

إن حنكة النورسي تتمثل في هذا التمَكُّن المنطقي والأدبي الذي يجعله لا ينجح فحسب في اضفاء الصبغة المنطقية على عوالم الغيب وعوالم الطبيعة الصماء وعوالم العجماوات، ولكنه إلى ذلك ينجح -وبمعقولية لا مراء فيها- في افتراض البيئة الموضوعية والعاطفة النابضة والسلوك الفطري والمأمورية الراتبة لتلك العوالم... إنه يشخصن ذلك دونما أدنى افتعال، وما ذلك إلا لأنه يرقى إلى تصوير تلك العوالم الطاهرة بروحية طاهرة، روحية تتعكسُ ذاتَها[25] وتَحَنُّفَها وفَناءها وانصياعها وطمعها وذلتها الدنيوية المتطلعة إلى مرضاة الله وإلى استنزال رحمته وبركاته، في ما تصف وتستشرف من عوالم الغيب، فتعاين اللامرئي بروحية الذات التي استطاعت أن تنفذ إلى ما وراء الحواجز، وترقى إلى ما فوق الحجب...

إن النورسي بهذا التمثل الاقترابي لعوالم المغيب يوسع من دائرة المعرفة الروحية الإنسانية، ويستصلح آفاقا أخرى مما أفسدت ثقافة الحس واللا إيمان.

قابلية اقتحام الإشكالات الشائكة

لا ريب أن القدرة العقلية التي تميَّز بها النورسي هي التي تقف وراء ظاهرة اقتحامه للمسائل الدقيقة والقضايا العويصة...

فلقد رأيناه يبدي نوعا من الإصرار على معاودة القول في طائفة من الموضوعات الحرجة المتعلقة بالغيب وبما فوق العقلي...

فحين نراه يطرح مثل هذا السؤال: ''إنك تقول في هذا المقام لقد أحاط الحسن والجمال والعدالة بالكون، ولكن ما تقول فيما نشاهده من القبائح والمصائب والأمراض والأموات؟''

فلا ريب أنه يجد في نفسه الباعث العقلي على الخوض في هذه الإشكالية الفلسفية والشرعية وتبسيطها وتنوير الفئات المسلمة عنها، مدللا بذلك، وفي نفس الوقت، على نزعة تحَدٍّ وإرادة نزال لا تكون إلا عند المقتدرين.

لا شك أن قراءتنا لرده عن هذا السؤال ستكشف لنا عن طبيعة التصور والتفكير التي تميزه.

نراه -للإجابة- يطرح المسلَّمة الحاسمة التالية، وهي أن الحسن ما كان ليظهر للناس ويعرفونه لو لم يوجد بإزائه القبح.

من الواضح أن الاكتفاء بهذا الرد المجمل كان سيجعله ردا عاميا لا يخرج عن سياق الإثباتات الوعظية كما يدور على ألسنة الخطباء العاديين، لذا نرى النورسي يصعِّد في عملية التدليل، فيعزز مُسَلَّمَتَهُ بفذلكة منطقية تؤكدها، حيث يبيِّن أن ملابسة القبح للحسن يجعل درجات الحسن تظهر للعيان، ويستدل في هذا الصدد بما يحصل للأجسام حين تلابسها البرودة، إذ أن ملابسة البرودة للأجسام تجعلنا نميز درجات الحرارة فيها، فكذلك تداخل القبح في الأشياء يمكننا من تمييز مستويات الحسن فيها.

من هذا الاستدلال يخلص النورسي إلى الحقيقة التالية وهي أن القبح الذي يتيح للحسن أن يظهر هو بالضرورة شيء جميل، لأنه يقوم مقام العلة من حيث أهميته في الكشف عن حقيقة الحسن... وما هو علة للخير هو حتما خير، وما هو علة للحسن هو بطبيعة الحال حسْنٌ حتى ولو كان قبحا... (وهنا يجد القارئ نفسه -آليا- يستدعي عشرات الأحوال التي تؤكد هذه القاعدة، فسماد الأرض -الطيبة- يغدو شيئا حسنا رغم فساده، وتذكير الثمار بالذُّكَّار المحموم كذلك هو أمر حسن، وتلقيح الطفل بالمصل الذي هو جرثوم أمر حسن...)

من هذا المنطق يستدعي ذهن النورسي مسائل أخرى أكثر تعقيدا يسحب عليها قاعدته، من ذلك موضوع الموت، إذ يرى أن الموت لا تتنافى مع مبدأ الرحمة العامة والحُسن المحيط والخير الشامل، لأن الموت من مقتضيات هذه الأمور، باعتباره ظاهرة تجدد، وموعدا لاستخلاف الدفعات بعضها ببعض، ومنعطفا تتحول به الحياة إلى عالم الأبدية... فما يفضي إلى السعادة هو بالفعل حسن وخير ورحمة، حتى وإن جهل الإنسان ذلك.

هكذا منهج النورسي العقلي، إنه يطرح الإشكالية ثم يتخذ منها صعيدا لبسط قناعته ورؤيته... وأغلب ما تكون الإشكالية حادة في تحدِّيها... ثم، ومن معالجتها يأتي الجواب بكامل المعقولية الهادئة والتبصر غير المنتظر في الغالب.. ليتولد القانون في

النهاية "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"،[26] ويتعمم المبدأ على سائر الظواهر المشاكلة للموضوع.

وإذا ما تَمَعَنَّا في فحوى هذا القانون الذي استنتجه النورسي عن الشر والخير "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"، فلا شك سيشدُّنا فيه مفهوم (الجزئي) الذي ظهر كقيمة طرفية في المعادلة التي يتأسس عليها نص القانون "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"، هناك إذَنْ شرٌّ كلِّيٌّ، وشَرٌّ جزئي، فالشر الكلي لا حُسن معه، وهو العدم، لأن الوجود من حولنا يفيض بالحسن...

إن مفهوم (الجزئية) قد سبق أن رأيناه[27] متداولا في خطاب النورسي حين حديثه عن مسألة الإرادة الإنسانية حيث قرر أن (الإرادة الإنسان جزئية، جعلها الله شرطا لإرادته عز وجل الكلية).

وهنا أيضا نجد مفهوم الجزئية يتناظر مع مفهوم الكلية في ضبط مبدئية القانون (قانون الخير والشر). فرؤية النورسي هنا كذلك تفكك الإشكالية الفكرية(القضية)، وتنفُذ إلى فهمها وتَصَوُّرِها من خلال إجرائية ربط الأواصر ولَحْم الصلات بين البنية وعناصرها، الفرع وأصله، الورقة وشجرتها، قطرة الماء والنهر الذي انفلتت منه.

بل إن النورسي وفي ضوء هذا التفكيك التصوري قد فهم قضايا أخرى فلسفية ووجودية من مثل حقيقة (الإرادة).

لقد استوعب النورسي مسألة الإرادة (الحرية) وأثبت أن للإنسان هامشا منها، دون أن يُقِرّ لذلك الهامش بالاستقلالية -كما فعل المعتزلة- لأن النورسي لم يفصل بين إرادة الإنسان وبين ترشُّخ الإرادة الإلهية الضابطة لكل شيء. لقد أرسى النورسي الوشائج بين إرادة العبد وإرادة الرب على قاعدة الاكتناف والتوجيه، فكأن الخالق يسأل عبده حين يهم بفعل ما: يا عبدي أي طريق تختاره للسلوك فأنا أسوقك إليه".[28]

- هناك عُلُوٌّ قانونيٌّ أو خلاصةُ الخلاصات تفضي إليها مطارحاته، إذا لا تكاد تتوقف رؤيته التمحيصية عند حد استخلاص القانون الخاص بالأعراض والجزئيات، لكنها تتعدى إلى سن قانون المبدإ (المبدئية) كما هو الحال هنا، عندما أردف نص القانون النِّسْبي "إن قبحا يكون سببا لإنتاج أنواع من الجمال أو سببا لإظهارها يعد كذلك جمالا..."[29] بنص القانون الشمولي "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"، إذ جاء بمثابة تحصيل المحصلة وتوثيق القاعدة.

بل إنه لا يكتفي بالتنصيص على القانون فحسب، وإنما يستطرد إلى التدليل على صدقيته واطراديته، وهذا بإيراد الموضِّحة التي ترسخه "...تبلل المرء المتكاسل بالمطر لا يقدح في النتائج الخيرية للمطر"...[30]

وحين يتيقن النورسي من أن القارئ قد استوعب فكرته ووعى نظرته، ووثق من وجاهتها العقلية، من خلال ما استعرض له النورسي من سياقات حسية مُوَضِّحة، لا يتردد في تصعيد إثباتاته والذهاب بها مذهبا تعميميا، بل إن النظرية لتلح عليه في أن يتناهى في تعميمها حتى على نطاق دائرة الغيب واللامشهود، من ذلك ما فعله بقانون الشر والخير، إذ استنتج منه منطق خيرية وجود نوع الشيطان..إذ وجود الشياطين أمر خيري لأن الشيطان علة لتحريك عوامل الرقي والازدهار في البشر! كيف؟ بشحذ وازع المنافسه والتنازع بين الناس!

بهذا الاستدلال لا يسع القارئ -بطبيعة الحال- إلا أن يهز رأسه ويؤمِّن، لأنه يرى في النظرية منطقا لا تكذبه وقائع الحياة... بل إن قانون المدافعة كما سنه القرآن يؤكد هذه الحقيقة ويرسخها ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة:٢٥١.

بل لا غرابة -وضمن هذا التمثُّل المنطقي- أن يغدو حتى أمر جزائي كـ (تعذيب الكافر) شيئا جميلا! لم؟ لأن الكافر تعدَّى على حقوق الكائنات قاطبة، واستهان بمنزلتها الرفيعة، إذ أناط كمالها وعلو سلطانها بعلل وأسباب غير جوهرية، من قبيل القول بأن الوجود هو نتيجة فعل الصدفة أو أن المصير الإنساني تحدده الصراعات الطبقية أو تحكمه الصيرورة العضوية الارتقائية... (لننظر كيف أن وعي النورسي بعوامل الإلحاد التي سادت عصره كان حادا، فقد سجل على الشيوعيين إقرارهم للتاريخ بالعلة الأولى في تحريك المجتمعات والحضارات، ولاحظ على البدائيين تأليههم آلهة زائفة، وسجل على آخرين القول بأن الصدفة والدهر هما علة الوجود وعلة الفناء)...

ولأن النورسي يدرك أن نزعة اعتراض الخصوم لا تهدأ، وأن سجالهم لا يقف عند حد، لاسيما في موضوع إيماني كهذا، نراه يستطرد في مَدِّ مساحة الإثبات إلى حدود أبعد حتى يحسم ما قد يكون باقيا في نفس المتلقي من أسباب التشكك... فلذا نراه يجدد استعراض ذات الإشكال من مستوى جدالي آخر، فيطرح السؤال التالي:

لِمَ يبتلِي الخالقُ الرحيم أفرادا ضعفاء؟

ويأتي رد النورسي متساوقا مع النظرية الأم (كلية الخير وجزئية الشر)، مستلهما (مبدأ الجزئية) الذي رأيناه قد استنبطه في مسألة الحسن والقبح والشر والخير، فيبين أن إرادته -عز وجل- اقتضت نتائج جزئية أليمة ناشئة عن إرادة الحفاظ على تلك الكليات والقوانين التي تدير عليها دواليب صناعة الحسن والجمال، فكتب على من شاء من مخلوقاته البلاء، وذلك ليجلي للناس نعمة العافية التي يسهون عنها، إذ بأضدادها تتمايز الأشياء... لكن الله لا يغفل المبتلين من عباده، فإن خزائن إمداداته تمدهم على قدر حِدَّة الألم والاستغاثة والاستنجاد، فتقع لهم الاستعاضة ويتبدل الضر شفاء والأذى مكسبا والقبح حسنا...

ثم إن في مبدأ قدَرية البلاء توجد مسطرة من عدالة الله لا تخفى، إذ ليس هناك من لا تجري عليه مقادير الله حتى وأن تفاوت الحظوظ العارضة والضربات الواقعة... ومن ضحك صبحا لا يسلم أن يبكي مساء... هكذا الأيام دول، إلا أن القوانين الكبرى واحدة، الميلاد والموت من مقتضيات الحياة، وحوادث السعادة والألم هي في حراك دائم بين الكائنات، والضغوط والانفراجات على نِسَبٍ.

-لابد أن يرقى القارئ إلى منزلة نورية تجعله يتوطن على رؤية دلائل الإيمان ومعالم التوحيد في كل ما يحيط به من عناصر الكون، ليتسنى له أن يربط بسهولة بين اللوازم والملزومات، بين الظواهر والمُقَوِّم الربوبي الذي يحكمها ويحكم عللها العيانية.

ولأن النورسي-الذي انتهى بجهاده إلى بلوغ هذه الدرجة من اليقينية- كان يعي هذه الحقيقة وهو أن الإيمان يسهل على الفرد مهمة الوعي بقوانين الكونين وصلتها بالخالق، لذا ظل يحرص على أن يجعل نصوصه تنحو إلى المفاعلة المتواصلة من خلال توطيد منهج الاستقراء والمساجلة الترشيدية.

لم يكن يكتب محاضر تعرض الحال النفسية والاجتماعية التي هو فيها بقدر ما كان يعقد جلسات عمل روحي، تتخللها استراحات يقابل فيها مراجعيه وقراءه فلا تتملكه نشوة الإعجاب مما يرى في عيونهم من اِكبار لشخصه، وإنما كان يثابر على التوسع في الطرح، وعرض الأمثلة القريبة، وتبسيط المعاني البعيدة، والتدرج في التفهيم... وعلى قدر تقدمه في التوضيح والكشف كان يستمر في اختراق مناطق وأحوال أكثر دقة وتجريدا، فلا ينتهي منها إلا وقد بلغ قصي الآفاق ومنتهى الأدوار المعنوية والروحية، كل ذلك وهو هو، ثابت، يستميت في تشخيص أفكاره وعرضها بما يقَرِّبها

من ذهن المتلقي بروحية وقوة، فلا يزال متمسكا بأناته القولية، وسكينته القلبية، مالكا لصفاء خطابه ونصاعة لفظه.

فديدنه في الرسائل هو التناهي في بلورة المعاني، ورصف الخواطر، والتغلغل بعيدا في عالم الأفكار، والذهاب إلى أقصى حدودها التجريدية، والتعبير عنها بالبساطة اللازمة، وإظهارها للقارئ، وإغناء المعرفة الإنسانية بها...

إن اختياره القضايا الجوهرية الميتافيزيقية مادة للتأمل والبسط جعله يختار الفضاءات (الفيزيقية) المفتوحة صعيدا لخطابه، فالطبيعة والأرض والنباتات والجبال والأنهار والحشرات والكواكب والذرات... كلها وسائل تأمل ومدارسة روحية واستنطاق اعتباري... فالعين تطوي المسافات المترامية حيث الشواهد أكثر إعرابا عن مسائل الوجود الإنساني وعن آماد رحلته البعدية، ولا نهايات عوالم هذا الكون الذي يحيرنا بانغلاقه البليغ وببلاغته الصماء.

وهو في أحايين أخرى يدقق مساحة الشواهد بحيث تغدو مادة التنقيب والرصد عبارة عن عيّنة من الصغر والتناهي والمحدودية، فهي تارة النملة، وأخرى البذرة، وهي ثالثة حُبيْبة ثمرة... وهي في كل الأحوال المادة المرصودة والمنتصبة شاهدا للشرح والتجلية، ومن خلالها يعاين الراصد القضايا الكبرى والأفكار العظمى... إذ لا ينقب النورسي إلا في الكليات، لأن ذهنه يشتغل بصورة ثابتة على إشكالية الوجود وصلة هذا الوجود بموجده، فلذا تراه لا يفتأ يطوي الحجب ببصيرته، ليستكشف بعد كل نوبة إبحار يقوم بها، فائق هذه الانجازات الربانية المشهودة، الموعزة بفصيح اللسان على عظمة الباري.

بل إننا نجده يستقرئ معاني اسم الجلالة في الظواهر الحسية المجسدة في الطبيعة، من ذلك مثلا قراءته عناصر التوحيد التي تختزلها صيغة (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)، إذ طابق بين معاني هذه الأسماء الحسنى وبين الشجرة، أو بالأحرى استجلى وقائع هذه الأسماء الإلهية في هيئة الشجرة، بحيث وجد أن مقومات الشجرة تلخص معاني القول التوحيدي الشمولي وتقوم شاهدا يجلي تلك المعاني.

ذلك لأن النورسي وهو يدلِّل على هذا التشاكل، راح يقابل بين اسم الجلالة (الأول) وبين اسمه المستتر (العلي) الذي يجسده الكيان المكتمل للشجرة، ويقابل بين اسم الجلالة (الآخر) وبين اسمه (المستوفي) الذي ينعكس في هيئة الشجرة واستوائها.. ويقابل بين اسم الجلالة (الظاهر) وبين اسمه (الجلي) الذي يتجسد في سَمْتها وفروعها وكثافة ملبسها، ويقابل بين اسمه تعالى (الباطن) وبين اسمه (الخفي)

الذي يستبطن الشجرة في صورة عضويات كامنة في كيانها هي بمثابة الأجهزة الحيوية في كيان الإنسان (شرايين، قلب، كبد، جملة عصبية). "إن أول كل شجرة عليبة صغيرة وبرنامج، وآخرها نموذج ولائحة تعريف، وظاهرها حلة مزركشة ولباس مزين، وباطنها مصنع ومعمل، فهذه الجهات الأربع تلاحظ إحداها الأخرى، فتنشأ من هذه الأربعة علامة عظيمة جدا، بل اسم أعظم، بحيث لا يمكن قطعا أن يقوم بتلك الأعمال غير الواحد الذي بيده زمام الكون كله".[31]

- إن السداد هنا يكمن في الاستهداء إلى قالب تشخيصي وإلى (مُوَضِّحة) مستمَدَّة من الطبيعة ومن محيط الإنسان، وإبراز مبدأ الوحدانية كما تجسد فيها، فالقول التوحيدي هو هنا نص معنوي تمفصلت قيمُهُ في نص آخرٍ مادي، حسي، على نحو طباقي، وهو ما هيأ للقارئ أن يستبين كيفية استقرائية يستدلُّ منها على حقيقة الربوبية من خلال استجلاء معاني الأسماء الحسنى في الظوهر الكونية من حوله.

وهو ما فعله النورسي إذ تحول بمنطق المطابقة (تماهي الأسماء الحسنى في الشجرة) إلى منهج لاستحضار كلية أشمل لقانون تماثلي أعم، تتلابس فيه المعاني الإلهية مع الظواهر المادية، فالربيع يغدو شجرة تتجلى في خمائلها ومجالي خضرتها بعض أركان القول التوحيدي، وكذلك الخريف...

بل إن الإنسان نفسه لينطبق عليه هذا الاعتبار، لأنه يشخص أسماء التوحيد، إذ يُعَدُّ "هو شجرة أيضا، بذرتُه وجذورُه في أعماق الماضي، وثمراته ونتائجه في المستقبل، فكما أن وجود القوانين المنتظمة الجارية ضمن حياة جنسه وبقاء نوعه يحمل علامة توحيد واضحة، كذلك الدساتير المنتظمة لحياته الشخصية والاجتماعية في وضعه الحالي تحمل ختم وحدانية مستترة تحت الاضطرابات الظاهرية، مثلما تحمل دساتير القضاء والقدر لحياته وهي مقدراته الحياتية المتسترة تحت الأحوال البشرية الظاهرية ختما مخفيا منتظما للتوحيد".[32]

هناك -إذن- امتداد استقرائي تنهض به البصيرة انطلاقا من المُحَسَّاتِ والموجودات الماثلة للعيان، يُقِلُّ الروح إلى عالم الماوراء، حيث تشارف انفساحات برزخية تكمِّل بعوالمها معاني الوجود المشهود ودلالاته الجلية.

يذكر مبدأ لقضية كبرى، وينتهي في رصدها إلى الغاية بصورة كشفية لطيفة تجعل الملتقي يقف عند السلسلة الكاملة من أفراد المعاني الجزئية المكونة للمعنى العام أو للفرضية... وما أكثر ما يتبع النورسي نهج التبريج، أي الإحاطة بالقضية من خلال المسح القطاعي، أي بتتابع عملية البدء والعود على البدء في الرصد، كمن يمسح

سطح كوكب... ينطلق بالمسح من رأس القطب إلى غاية القطب المقابل، ثم يعيد الكرة مع مساحة أخرى من الكوكب إلى أن يأتي عليه في كليته...

والحقيقة إنه نوع من تجدد الانبثاق أو من التَّنَجُّم الذي رأينا النورسي ينهجه في كتاباته من خلال تفريع القضايا والمسائل في عملية البسط، ومن خلال الاسترسال في التعقيبات التي يُتَوِّجُ بها أحيانا كثيرة رسائله...

فلكأن الرسالة على ذلك النحو الاستيفائي عينٌ نجلاء تحفها رموش، أو شجرة باسقة ترخي ذيولها في دلال...

إنه يفعل ذلك لأن الهدف هو إجلاء ما تحتويه القضية الفكرية من أبعاد دالة على عمق حقيقة هذا الوجود، وعلى ما للنورسي من رغبة وشوق إلى معرفة خفاياه وخلفياته الغيبية...

إن مسألة الإيمان بالنسبة للنورسي مسألة حاسمة لأنها تتعلق بحق الخالق على عباده من جهة، وتتعلق من جهة ثانية بحقوق الكائنات والموجودات إزاء أفراد بعضها بعض، لأن الإخلال بمبدإ الإيمان التوحيدي هو تعد على الكائنات، وتشويش سخيف على الفطرة في الأشياء (...).

والمؤكد أن هناك تساندا كبيرا بين حِزَمِ التفريعات والتكميلات التي يتخرج فيها موضوع الرسالة، فكما أن التفريع الواحد منها يكفي لتجلية الحقيقة وإرضاء قناعة المتلقي، فكذلك تغدو الحزمة المتظاهرة وسيلة حاسمة في ترسيخ الإقناع.

فالنورسي يشاء للرسالة النورية أن توطد موضوعها على نحو متمهل (أجل، إنه يختزل أفكاره أحيانا، ولكنه غالبا ما يفعل ذلك في سياق تذكيري، أو تمهيدي)، فمن سمة الرسائل إنها تمعن في الإحاطة، تفعل ذلك بكامل الدأب والأناة.

هناك دورة استعراض تحليلي تُكْتَمَل ثم تعقبها دورة أخرى، وهكذا دواليك.. الاستئنافية مظهر عقلي، تبحُّري، من ديدن المتدبرين.

بل هناك جو من الذكر يستغرق متن الرسالة، أشبه بحال من يدير سبحة في يده، يمسح حباتها، وحين ينتهي إلى شاهدها ينطلق في دورة تسبيخ أخرى، إلى أن يستوفي الورد.

-كثيرة هي الخصائص التي تَرَسَّمها النورسي في الخطاب القرآني، ثم تحولت عنده بالتمرس والتنفيذ إلى ناجز رؤيوي تحلى به النورسي، من ذلك مثلا خاصية خرق المألوف وتمزيق الألفة...

فخطاب النورسي يعتمد دائمة استراتيجية التسديد نحو المدرك الخفي... فلذا أضحى طرحه تنبيها على الدوام... يشرع معك في مناقشة قضية ما تلابس وعيك... من قبيل الإيمان والوجود والحياة والموت والقدر والمكتوب والحظوظ والرضى والألم والإنسان والكائنات الأخرى... ثم يتدرج بك من البديهيات المعلومة والمشهودة ليرقى بك رويدا رويدا في مدارج التنبيه الحي والتحسيس الحميم... إلى أن يضع أمامك شبكة من الحقائق ويوزع لك الحجة في بساط أحمدي من التفاصيل المحيل بعضها إلى بعض، بحيث تجد نفسك أمام مشهد معرفي لا قبل لك به رغم أنه من لوازم حياتك في كل حين...

انظر كيف يسوق لك الشمس شاهدا على حضور الله ووحدانية، وكيف أنه لا يقنع بالقول إن وحدانيتها تدل على خالقها الواحد، ولا إن رتابتها تدل على وطيد نظام موجدها، كلا، ولا هو يكتفي بأن يلفتك إلى مثل هذه الدلائل المعادة في أدبيات الترشيد الاستهلاكي.

إنما يباشر ذهنك بأن يضعك أمام صفحة هندسية تستوعب الفضاء بكامله، وتخترق التفاصيل المكانية الزمانية بسهولة مذهلة، وهنا مكمن براعة النورسي واقتداره الاحتجاجي في مجال الروحيات... فالشمس تتحول فجأة في مصورته إلى آلاف بل الملايير من الشموس، ويغدو صعيد تجلياتها مرآة هي كل هذه المساحات الشاسعة من الكواكب والأقمار ومن البحار والسيول السائحة على الأرض، ومن القطرات المنتظمة في معاقد الندى على ألسنة النباتات، وفي مجالي الأغوار والجبال والسهول، وفي تموجات الظلمة وعبر تأجج أنوار السراب...

هكذا يفتت لك النورسي الوحدة، ويكثر لك العنصر الطبيعي الوطيد في فرادته، ويحاصرك بتعدديته اللامتناهية، فتجد نفسك قد خرجت من الألفة إلى الغرابة، ومن الاستنامة إلى التأهب، ومن الطمأنينة إلى القلق، ومن الشعور بالكفاية إلى الشعور بالحاجة...

إنه ببساطة يضعك أمام مشهد إدراكي صادم، لكن روحك لا تلبث أن تعلن تصديقها وتأمينها عليه...

فأنت قبل أن يفرد لك هذا المشهد الكوني الحافل بملايير الشموس كنت تعتدُّ بمعرفة يقينية تربطك بهذا العنصر الكوكبي الأم (الشمس) لدرجة أنه أضحى من مكونات البداهة الوجودية في خَلَدك، فبات مألوفا لديك، لا يخالجك قط أي شعور لأن تبحث في ماهية هذا العنصر الكوني أو تجدد من معرفتك به... ألم نسمعهم

يشبّهون جاحد الشيء بمن ينكر وجود الشمس في رابعة النهار، ومعنى ذلك أن الشمس باتت في الوعي الإنساني، بل وفي شعور كل كائن ذي روح، موضوع ادراك غريزي بسبب الملابسة المستديمة التي تصبغ صلة الكائنات بها، بحيث فقَدَ هذا العنصر الوجودي الحيوي إمكانية أي إيعاز مستجد أو أنه-على الأصح- بات معلما طبيعيا خابيا في ضمائرنا، لا يخامرنا أدنى نزوع أن نطلب من صدده أي مدد عقلي أو معرفي رغم الحيوية الحاسمة التي يضطلع بها في حياتنا، والتي تعكسها -بالأقل- النشرة اليومية التي تطلعنا على أجندة الشمس وبرامجها اليومي في ما يعرف بالأحوال الجوية...

إذ كثيرة هي تفاصيل الحياة التي تتوقف على مزاج الشمس... بل إن التوقيت المدني والشرعي لَيستمد جدولته من حركتها[33] اليومية والموسمية، فالشمس هي الناظم الأساسي لإيقاع حياتنا كأفراد ومجتمعات، بل وكحضارة... (أزمة الاحتباس الحراري الراهنة).. فعلى الرغم من كل هذه القتضاءات اللامحدودة لوظيفة الشمس إلا أن الإنسان لا يخطر على باله أنه سيحصُل له من قبلها شيءٌ يجدد روحه (والأمر يطرد، بالقياس إلى حضور الماهيات الكلية.. أليس حضور الله في كل مظاهر الكون - كما يستشعره الأصفياء- يغيب عن حس الناس العاديين تماما كما تغيب عنهم مثلا حضور الشمس وهيمنتها وجذرية وظيفتها في الحياة عامة)... ضمن هذا الرتابة في المنحى الاعتباري يباشر النورسي عملية تنقيب ورسكلة، ويجدد إمكانية ربط الجسور بين الإنسان المعاصر وبين كتاب الكون، بين العين وبين صفحة الغلاف التي من طول ما توطن النظر عليها لم تعد جاذبة للحس، ولا جالبة لشيء روحي طريف...

وهكذا يتمكن النورسي من بناء قبة من مرايا حسية للشمس، كل شيء في فضائها يتلألأ بعلامة وينقدح بدلالة... حضورها يتراءى في طيّات التراب وأعالي البحار ومن قصي الكواكب، من عشب الأرض وندى الزهر وترقرق الأودية والتماع ذريرات الرمل والمعادن والأحجار.. كل شيء يتحول في عين النورسي إلى شاشة عاكسة لوجه الشمس، بحيث تنتصب بنورانيتها في كل سطح وكل مَجْلى... كل مكونات الوجود الحسي مرآة، وكل بقعة مثابة استقبال، والشمس طلعة بهية من نور، في كل حيز تلوح بهجتها... هكذا يتعدد الواحد ويَشيع حضورُه فلا يخلو منه موقع ولا تفتقده مساحة... وهكذا يتجلى الواحد الفردُ عددا لا نهاية له ولا حد...

وهكذا تقرأ الروح في هذا المشهد الشاخص الذي خطته فرشاة النورسي للشمس، مثالا ناطقا بحضورية الاله الأوحد، خالق الشمس ومديرها، ومسخرها بما أنفذ فيها من جامعية أسمائه الحسنى.

* * *

الهوامش

1 جامعة وهران.

2 الشعاع الرابع.

3 في متن كل رسالة يخصص النورسي مقعدا للمتلقي، يحاوره فيه، ويراجعه، ويستصحبه على نحو أو آخر، حتى في تلك المقامات النصوصية التي حملت السمة الشخصية وكانت خاصة بمواجد النورسي.

4 م.س ٧٦.

5 أكثر من مرة أسقطت هذه الفقرة لأنها بدت لي مصنوعة، ثم وجدتني أعيدها.

6 م.س.

7 حسبنا الله ونعم الوكيل.

8 الشعاعات٧٤.

9 الكلمات ٤٤١.

10 م.س ٤٤٢.

11 م.س ٤٥٧.

12 الكلمات. ص٤٨٢.

13 م.س٤٥٦.

14 م.س٤٥٤.

15 م.س٤٥٥.

16 م.س٤٢٠.

17 م.س٥٥٠.

18 الكلمات ص٣٥٥.

19 م.س ٣٨١.

20 الكلمات٣٨١.

21 والأصل هنا، ما ورد في الحديث بهذا الخصوص.

22 م.س٧٧٤.

23 الكلمات.٤١٣.

24 الكلمات ٧٧٥.

25 (أو تسقطها على... كما يقال في لغة علم النفس).

26 الشعاعات ٣٧.

27 راجع ص١٣.

28 م.س ٥٤٨.

29 م.س ٣٧.

30 م.س.

31 م.س٤١.

32 م.س.

33 الحركة المجازية كما أخبر القرآن.